

الخليفة العباسي المأمون ودوره في تطور فكرة السيادة الاسلامية (*)

تلمان ناكل

جامعة بون

جمهورية ألمانيا الاتحادية

ان الحركة الهاشمية التي قضت على سيادة بنى
أمية في شرق العالم الاسلامي كانت حركة متعددة الفئات،
مختلفة الاصول . وكان أصلها الرئيسي الفرقة الكيسانية،
وهم منتحلو آراء المختار بن أبى عبيد، وعندما فشلت
ثورة المختار على ممثلي ابن الزبير انقسمت هذه الفرقة
وقال بعضهم اننا لا نقاتل العدو من أجل محمد
ابن الحنفية ، انما نقاتله من أجل امامة الرضا من آل
النبي كائنا من كان .



وكان عامر بن شراحيل الشعبي المحدث المشهور قد خرج مع المختار ثم بعد هزيمة
الكيسانية اعرض عنهم وقال يذمهم : لو كانت الشيعة من الطير كانوا رخما ولو كانوا
من الدواب كانوا حميرا وقال الشعبي مرة أخرى أحب صالح المؤمنين وصالح بن هاشم
ولا تكن شيعيا (1) . وقد قصد الشعبي بهاتين العبارتين ذم الافراط في التشيع
لشخص معين دون بنى هاشم كلهم كما أراد ان يعبر عن ميله الى حب آل الرسول .
ومن آل الرسول بنو أبى طالب بن عبد المطلب وبنو الحارث وبنو العباس وغيرهم .

(*) محاضرة ألقاها في المركز الثقافي الاسلامي بالعاصمة بتاريخ 28 فبراير 1977 .
(1) أنظر ترجمة عامر بن شراحيل الشعبي في طبقات ابن سعد .

تدل مقالات الشعبى على ان التيار السياسى والدينى الذى غرضه استبدال خلافة بنى أمية بسيادة من هو أقرب رحما الى الرسول قد صار أوسع ابعادا بعد هزيمة المختار . نشاهد نفس الشئ فى اشعار الكميث بن زيد التى مدح بها آل النبى يعنى بنى هاشم كلهم واشعاره مشهورة جدا لا حاجة الى ايرادها هنا .

استولى بنو العباس على الحركة الهاشمية فيما بعد . ولكن المصادر التاريخية تدل بصراحة على ان فروع بنى هاشم لم يتنازلوا طوعا عن حقهم فى الامر . مثلا كان عبد الله بن معاوية العلوى قد خرج على سلطان بنى أمية فى الكوفة ثم هرب الى فارس وأسس هناك أول دولة هاشمية مستقلة فى 129 هـ . فلحق به رجال من بنى هاشم منهم المنصور الذى صار الخليفة العباسى الثانى فيما بعد . ولكن ابن ضبارة القائد الاموى انتصر على جند عبد الله بن معاوية فلجأ العلوى الى أبى مسلم الذى كان يقيم بمرور حينئذ . فحسبه أبو مسلم فوراً ثم قتله خوفا من ان يعلو شأنه .

بالاضافة الى ذلك تدل المراجع على تنازع شديد فيما بين أعضاء الاسرة العباسية يدعى بعضهم تراث السفاح دون البعض الآخر . فحالف عبد الله بن على على المنصور لما افضت الخلافة اليه . وما تنازل عيسى بن موسى عن حقه الا بعد تهديد عنيف . وطالب المنصور بأهل العقد والحل حق تعيين ولى العهد واجبر أصحابه على ان يعترفوا بابنه المهدي خليفة من بعده كما فعله المهدي ذلك من أجل ابنيه موسى الهادى وهارون الرشيد روى سعد بن عبد الله القمى صاحب كتاب «المقاتلات» ان المهدي كان أول من عقد الخلافة والامامة على أصحابه وأوليائه والامة ، ثم أصبح حق تعيين ولى العهد معمولاً به منذ ايام الرشيد (2) .

لا يمكن الشك فى ان اعلان ذلك الحق من جانب المهدي كان خطوة رائدة نحو توطيد سيطرة الدولة العباسية على المسلمين . قد نزع ذلك القانون الحق فى الامر عن فروع بنى هاشم الذين كانوا ينافسون بنى العباس كما رفع أسباب التنازع فيما بين أعضاء الاسرة السائدة . ولكننا نستطيع ان نفهم أهمية قانون المهدي فهما اعمق اذا حاولنا

(2) كتاب المقاتلات - تحقيق مشكور - طهران 1963 - ص 66 .

تحليل الاحوال السياسية السائدة على العالم الاسلامى منذ ايام انحطاط الدولة الاموية . قلت ان الحركة الهاشمية كانت حركة مختلفة الفئات وكانت تلك الفئات اصحاب فروع بنى هاشم المتنافسين . لكن الهاشمية اصبحت تتحالف مع الحركات الاخرى التى كانت تناضل من أجل القضاء على بنى أمية . روى المؤرخون ان بعض الحوارج كانوا قد اعانوا عبد الله بن معاوية على جيش الاموى لما هرب من العراق الى فارس كما حدثنا رواة الاخبار ان بقية جيش الحارث بن سريج دخلوا جند أبى مسلم بمرور . كان الحارث بن سريج قد خرج على بنى أمية يطلب منهم القيام بسنة رسول الله صلعم . فجدير بالذكر ان النقباء الهاشميين كانوا يأخذون البيعة على الهاشمية على الشكل التالى : نبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه صلعم ، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلعم . وما ذكروا سنة النبى الا بعدما لحق بهم جيش الحارث ابن سريج (3) . فنرى ان جميع تيارات المعارضة قد تحالفت على الخليفة الاموى . فصارت الهاشمية تشمل اتجاهات هامة للفكر الدينى والسياسى فى ذلك العصر وان كانت متناقضة من قبل .

ولما استولى بنو العباس على الخلافة ظلوا يصلحون بين الفرق المتناقضة . يدلنا على ذلك ما قال داود بن علي عم السفاح حين المبايعة فى الكوفة وهو يخاطب الناس : أيها الناس انا والله ما خرجنا فى طلب هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبني قصرا وانما أخرجنا الانفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم ويهظنا من شؤونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم واستدلالهم لكم واستثثارهم بفيثكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم - لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلعم وذمة العباس ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلعم (4) .

(3) تاريخ الطبرى - طبعة ليدن - 2 - ص 1979

T. Nagel, Untersuchungen zur Entstehung des abbasidischen Kalifates, Bonn 1972, 145, 158.

(4) الطبرى - 29/3

ما هو مدلول هذه الخطبة ؟ يزعم داود بن علي ان دولة بنى أمية كانت دولة قبيحة لانهم لم يتسكوا بالتنزيل ولا بسيرة الرسول بعنى بالسنة النبوية . فاستبدوا بالامر استبدادا وها دولة بنى العباس قد جاءت تضمن للمؤمنين ان تحكم فيهم بالقرآن والسنة . ويتفق ذلك مع ما ظل أصحاب السنة يطلبون من خلفاء بنى أمية وما حققه عمر بن عبد العزيز فى خلافته القصيرة المدة . لكن فى كلمات الخطبة المذكورة تعريضا لتيار فكرى ثان وهو فكرة الامامة كما دعا اليها فرق الشيعة ولا يجوز ان نغفل الاصل الشيعى للحركة الهاشمية الذى أضرت اليه آنفا . قال داود بن علي ان للناس ذمة العباس . وكان أبو العباس السفاح قد قال لهم قبل ذلك : ان الله قد أيد الاسلام بنا وخصنا برحم رسول الله وقرابته وانشأنا من آبائه وانبئنا من شجرته وانزل بذلك على أهل الاسلام كتابا فقال الله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » - فى آيات أخرى تشبه معنى هذه الآية - فاعلم الله الناس فضلنا ووجب عليهم حقنا ومودتنا وبنا هدى الله الناس بعد ظلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وظهر بنا الحق وادحض بنا الباطل واصلح بنا ما كان منهم فاسدا وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دينهم ودنياهم (5) .

نكتفى هنا بايراد هذا الفصل من خطبة أبى العباس السفاح . فانه من الواضح ان هذه الكلمات عبارة عن الامام ومقامه فى الامة على نفس الوجه الذى كانت الشيعة تصوره عليه وهو امام أصله فى آل النبی يأتيه شئ مما يشبه الالهام وان لم يكن وحى . فنرى آل العباس قد بنوا خلافتهم على أساس فكرى يوفق بين آراء أهل السنة . ومقالات أهل التشيع . واذا درسنا ما روى من أفعال الخليفة العباسى المهدي يظهر لنا هذا الأساس الثنائى لحكمه . ان المهدي كان يقتدى بسيرة الرسول . مثلا أراد أن يعيد منبر الرسول الى ما كان عليه قبل دولة بنى أمية والغى استلحاق معاوية زياد ابن أبيه وأهله واخرجهم من نسب قريش وديوانهم . فعل ذلك اعتمادا منه على السنة النبوية . ثم أعلن المهدي ان رسول الله صلعم ، قد أوصى للعباس بالامامة وان كل من

(5) المصدر السابق - 29/3

T. Nagel, Rechtleitung und Kalifat : Versuch über eine Grundfrage der islamischen Geschichte, Bonn 1975, 91 sqq.

P

سيطر على دار الاسلام قبل دولة بنى العباس انما استولى على الامر غصبا وان بنى العباس توارثوا الامامة بالوصية حتى ظهرت دولتهم على دولة بنى أمية . هذه المقالات هي التراث الشيعي للعباسيين لا شك فيه . ولكنها تؤكد استقلال الخليفة العباسي عن جميع الفرق الدينية والسياسية وتصيره فوق التيارات المتناقضة وهو الوارث الشرعي الوحيد لتراث النبي .

انى قد أطلت شرح هذه المبادئ لانها هي مبادئ الفكر الدينى والسياسى الذى هو منطلق فكر المأمون واصحابه . ان المأمون لم يبتدع أفكارا ومثلا عليا كانت محدثة بأسرها . لكنه واصل تطوير ما كان رائجا من الافكار .

عاش المأمون فى قصر البرامكة وهو شاب بالغ السن . من المحتمل انه كان يشترك فى الحياة الفكرية التى نجد آثارها فى كثير من ميادين الفكر . روى المؤرخون ان قصر البرامكة كان ملجأ الفلاسفة والمتكلمين وكان البرامكة يشجعون البحث العلمى والشغل بتراث الفلاسفة اليونان وعلماء ايران والهند وكانوا يكرمون الباحثين اكراما . من المحتمل ان هذه البيئة العقلية اثرت على الشاب تأثيرا عميقا . لكن قصر البرامكة ما كان مركزا للعلم فقط بل كان مركزا سياسيا فى نفس الوقت . يدل على ذلك ما رفع محمد بن لىث الواعظ المشهور من ذم البرامكة الى هرون الرشيد فحبسه الخليفة وما اخرجته من السجن الا بعد سقوط البرامكة . لمحمد بن لىث هذا رسالة طويلة يؤلب فيها الناس على أهل خراسان رواها ابن عبد ربه فى المجلد الاول من كتاب «العقد الفريد» ومن المعلوم ان فضل بن يحيى البرمكى كان عاملا للخليفة على خراسان . وكان يحيى أهل خراسان لا يأخذ منهم الا شيئا يسيرا من الخراج فعزله الخليفة وعين على بن عيسى بن ماهان مكانه . فعامل الناس بالعنف وخاشنهم حتى أخذ منهم مالا كثيرا . فلام فضل بن يحيى الخليفة لما بلغه ما فعل على بن عيسى فعزله الخليفة . فثار الناس فى بغداد لما رأوا من محاباة الخليفة لأهل خراسان . وبعدما حبس محمد بن لىث حاول البرامكة ان يحكموا نفوذهم على الخليفة وان يضاعفوا من قوة الحزب الخراسانى . فاقنعوا هرون الرشيد بان يعين ابنه الثانى المأمون وليا للعهد بعد أخيه الامين وبان يقسم دار الاسلام الى قسمين ويعطى المأمون القسم الشرقى منها ففعل ذلك . ثم

رحل المأمون الى خراسان وتصرف فيها تصرف الامير المستقل . فاصبحت دار الاسلام قد انشقت شقين قطب الواحد منهما المأمون والعلماء الذين رافقوه منذ أيام تربيته في قصر البرامكة ومشاوراه السياسيين حسن بن سهل وفضل بن سهل اللذان كانا يخدمان البرامكة من قبل . وقطب الآخر منهما الامين ومشاوراه على بن عيسى بن ماهان والفضل ابن ربيع الذي كان من أشد اعداء البرامكة . فلا غرو ان الاحوال كانت متوترة جدا لما مات هرون بالقرب من مدينة طوس . لم يتردد الامين في نكث العهد الذي وعد به اخاه . عزل الامين اخاه المأمون من ولاية العهد وعين ابنه الصغير وليا للعهد مكانه وسماه الناطق بالحق . فاستهزأ الناس في بغداد منه وقال بعضهم في ذلك :

فعال الخليفة اعجوبة واعجب منه فعال الوزير (6)
واعجب من ذا وذا اننا نباع للطفل فينا الصغير
ومن ليس يحسن مسح انفه ولم يخل متنه من حجر ظير
وما ذاك الا بياغ وغاو يريدان نقض الكتاب المنير

ان المأمون لما عزله أخوه من ولاية العهد تسمى بالامام ولم يتسم بالخليفة لانه كان يتردد في الاقدام على قطع العلاقات التي كانت تربط بينه وبين أخيه الخليفة الشرعي قطعاً نهائياً . وما أخذ الطاهر بن الحسين البيعة للمأمون بالخلافة الا بعدما نشبت الحرب بين المأمون وأخيه . وما ان بلغ المأمون ان أخاه كان يتعدى على أهله وماله بالعراق حتى اتخذ التدابير اللازمة لفتح العراق وللقضاء على سيادة الامين . واستحث المأمون أهل خراسان على القتال من أجله وأشار الى الخدمة التي قدموها الى أسرة بنى العباس في الماضي وقال لهم اني محي الدعوة العباسية التي سيكون انتصارها في خراسان كما كان من قبل . ثم جمع المأمون الرؤساء والفقهاء ودعاهم الى الحق والعمل به ووعدهم احياء الدعوة وكان يقول للرؤساء اننا نقيمكم مقام نقباء الهاشمية في أيام أبي مسلم . ثم حط عن أهل خراسان ربع الخراج . فمدحه الناس وقالوا قد انعم علينا

(6) يعنى الفضل بن ربيع . انظر المسعودى - مروج الذهب - طبعة بيروت 1965 - 397/3 .

ابن اختنا وكانت أم المأمون من أهل بادغيس . فانقاد للمأمون من له شأن في خراسان ودخلوا في طاعته . في تلك الايام أمر المأمون كاتبه أحمد بن يوسف ان ينشئ رسالة يوضح فيها مبادئ الحكم التي تبناها المأمون ويستحث فيها أهل خراسان على التمسك بالدعوة الجديدة . ففعل أحمد بن يوسف ذلك وانشأ الرسالة المسماة برسالة الخميس وهي من أهم وثائق الفكر السياسي والديني في عهد العباسيين . والخميس هو الجند ويخاطب المأمون بهذه الرسالة جنوده والقواد خاصة . واني ساورد أهم فصول رسالة الخميس المكتوبة عن المأمون ثم ساشرح الافكار الرئيسية منها حتى تتضح المبادئ المعنوية التي كان الخليفة يعتبرها أساسا لوظيفته .

يبتدىء مؤلف الرسالة بحمد الله على نعمته ويقول ان الله فاطر السموات والارض وما بينهما هو الذي جعل ما أودع عباده من نعمته دليلا هاديا الى معرفته بما أفادهم من الالباب التي يفهمون بها فصل الخطاب حتى أستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ومتقن صنعته على ان لهم وللعالم كله بارغا هو انشاء وابتدأه ويسر بعضه لبعض - يعني ان للانسان عقلا واذا تأمل الانسان ما يحيط به من المخلوقات فلا بد من ان يعرف ان للعالم خالقا رحاما هو الله تعالى . ثم يقول صاحب الرسالة ان من عظيم نعمة الله على خلقه افتقاده اياهم ثم يسددهم ويدلهم على منافعهم ويجنبهم مضارهم ويهديهم لما فيه صلاحهم ويرغبهم في المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ولولا ما تقدم به من تلافيهم واستدراكهم بفضل رحمته لتهالكوا ببغى بعضهم على بعض وعدوان قويهم على ضعيفهم ولكنه بعد تعريفه اياهم ملك قدرته بعث اليهم انبياء ورسله مبشرين ومنذرين لان الناس لم يكونوا ليطيعوا أمرا لآمر ولا نهيا لناه الا بحجة وتخويف ورجاء - يعني لا يطيعون أمر الله الا بالوعد والوعيد .

ثم يستطرد صاحب الرسالة من ذلك الى قوله انه لم تزل رسل الله عز وجل الى خلقه تترى بالنور الساطع والبرهان القاطع . . . وكان انبياء الله يبعثون نذرا للامم حتى ختمهم الله عز وجل بالنبى الامى محمد صلى الله عليه وسلم وأكمل الله لعباده دينهم الذى ارتضى لهم... ثم خلفه الله - اذ ختم به الانبياء - بالبررة النجباء من ادانيه ولحمته لاقامة الشرائع المفترضة وانفذ حكم الله المنزل . . . ثم يقول ولو كان الائمة

المقلدون أمر عباد الله خاملة انسابهم غير مخصوصين بفضيلة يرونهم بها دون غيرهم لم يعد عقد الخلافة لهم ان تكون من مفترضاته على كافة الامة أو على بعض دون بعض ويشرح لنا صاحب الرسالة انه لو كان الناس بأنفسهم مسؤولين عن اختيار خليفتهم لم يتفقوا ابدا على شخص واحد ولو كانت الامة على مثل هذه الحال من اختلاف الآراء لهلكت بعد مدة يسيرة . ولذلك السبب وصل الله نسب الخلفاء بنسب رسوله صلعم ليرى المؤمنون من يلتجئون اليه فيما يهمهم من الامور - . وقال المؤلف ولم يزل سياق أئمة الهدى مطردا ونظامهم متصلا يتلقاه كابر عن كابر . . . حتى تناهى الى أمير المؤمنين وهو حال دار دعوته وبين انصاره من أهل خراسان - ثم يصف صاحب الرسالة فضائل أهل خراسان ويحمدهم على ما رأى بنو العباس من اخلاصهم لهم ومن حبهم لاهل البيت ويعددهم جزاء خيرا اذا اعانوه على النصر ويعظمهم عن خذلان الامر الحق . (7)

ان الافتراض الرئيسى الذى يبنى الخليفة افكاره عليه هو اعتقاده ان الله قد خلق الانسان كمخلوق له عقله الحر . فاذا من واجبات الانسان ان يستخدم عقله حتى يدرك اسرار الكون ونظامه فيعرف كنه نواميس الطبيعة وكذا كنه الشريعة التى نظم الله تعالى بها علاقات الانسان بالله وتعايش الناس فيما بينهم . من المشهور ان ذلك الافتراض من اعتقادات التيار المعتزلى الذى أصبح يزدهر فى أواخر القرن الثانى الهجرى والذى عرفه المأمون حين تربيته فى قصر البرامكة . كان المعتزلون يمدحون العقل وكانوا يقولون اذا استخدمنا العقل ونقدنا جميع المقالات وكل ما يعتقد الناس بحسب قواعد المنطق حصلنا على العقيدة الصحيحة الوحيدة فتعود الامة أمة واحدة بعد ما كانت فرقا متناقضة . وسيضمحل فساد القتال والحروب بعد توحيد الدين أو الآراء الدينية . كل هذا من التأثير الحسن الذى للعقل الانسانى على الحياة الاجتماعية . وكان المأمون يرجو ان يصلح بين الاحزاب المتخاصمة بالحجج العقلية لا بالقهر والعنف والتهديد . روى الخطيب البغدادى ان المأمون كان يقول غلبة الحجة احب الى من غلبة القدرة لان غلبة القدرة تزول بزوالها وغلبة الحجة لا يزولها شيء . (8)

(7) جمهرة رسائل العرب - تحقيق أحمد زكى صفوت - القاهرة 1937 - 3/ رقم 207 .

(8) الخطيب تاريخ بغداد القاهرة 1931 - 10/ 183 - رقم 5337 .

الجدال الفكرى حر مباح • هذا من معتقدات المأمون - والجدال الحر يؤدي بالانسان الى الحقيقة الدينية والى الوحدة السياسية ثم الى السلم • ولكن ما وظيفة الخليفة أو امام الهدى فى هذا النزاع الفكرى ؟ هل يدرك الانسان كل ذلك بدون معلم وبدون دليل ؟ لا • يقول صاحب رسالة الحميس لا يمكن الانسان تحقيق تلك المثل العليا بدون مرب • ووظيفة امام الهدى هى تربية الناس حتى يستطيعوا ان يحققوا مصالحهم تحت اشراف الامام • ان الله بعث رسله الى الامم القديمة ليدلوهم على الحق وليعينوهم على تحقيق احكام الشريعة التى فهموا حقيقتها بالعقل الذى من الله عز وجل به عليهم • وكان الرسل والانبياء قد ادوا تلك الوظيفة بواسطة الوحي الذى كان يأتيهم من عند الله • لكن لا يجوز لمخلوق ادعاء الوحي الالهى بعد وفاة محمد لانه كان خاتم الانبياء • فاذا ما يؤهل امام الهدى لاداء مهمته التى لا بقاء للامة الا بها ؟ قال صاحب الرسالة ان الله خلف رسوله محمدا البررة النجباء من لحمته أى من أسرته ومن اقربائه الاداني • فيجوز الاستنتاج من هذه العبارة ان لاهل البيت مزايا خاصة تميزهم عن سائر الناس وتلك المزايا هى مواهب من عند الله وهبها لهم تقديرا منه لهم على القيام بوظيفتهم الضرورية • ومما يبدو لنا ان تلك المواهب المشار اليها هى مواهب تصل بين الائمة والانبياء وتضمن لكل مؤمن استمرار الهدى الالهى على الارض - طبعا على مستوى ادنى منه فى حياة الرسل والانبياء لان الوحي الالهى قد انقطع عن الانسانية الى الابد لما توفى الله محمدا صلى الله عليه وسلم • فنجد لامام الهدى منزلة عظيمة الشأن عند الله وأيضا عند جماعة المسلمين وان كان شأنه اقل أهمية بكثير من شأن الانبياء •

وصف عمرو بن بحر الجاحظ شأن الامام مقارنة بين مقام كل من الرسل والانبياء والائمة وكان ما شرح الجاحظ من اصول الامامة موافقا لرأى المأمون لان الجاحظ كتب فى بعض فصول كتاب البيان والتبيين ان المأمون قرأ مؤلفاته فى الامامة فوجدها على ما أمر به • (9)

(9) الجاحظ - البيان والتبيين - طبعة القاهرة 1956 - 329/3 .

قال الجاحظ في رسالته المسماة بكتاب استحقاق الامامة ان الجماعة لا تخلو ابداً من الحاجة الى امام يهديهم وان دلهم عقلهم على حقيقة الشريعة وضرورة العمل بها .
والائمة ثلاثة أنواع : رسول ونبي وامام . فالرسول نبي امام والنبي امام وليس برسول والامام ليس برسول ولا نبي . وانما اختلف اسماءهم ومراتبهم لاختلاف المقومات والطبائع وعلى قدر ارتفاع بعضهم عن درجة بعض في العزم وبتغير الزمان يتغير الغرض وتتبدل الشريعة فافضل الناس الرسول ثم النبي ثم الامام فالرسول هو الذى يشرع الشريعة ويبتدىء الملة ويقيم الناس على جمل مرشدتهم ولولا ان فى طاقة الناس قبول التلقين وفهم الاشارة لكانوا هملا ولسقط عنهم الامر والنهي ولكنهم يفصلون بين الامور اذا اوردت عليهم وكفوا مؤنة التجربة وعلاج الاستنباط ولن يبلغوا بذلك قدر المستغنى بنفسه المستبد برايه المكتفى بفطنته عن ارشاد الرسل وتلقين الائمة وانما جاز ان يكون الرسول مرة عربيا ومرة عجميا وليس بيت يخره ولا شرف يشهر موضعه لانه حيث كان مبتدىء الملة ومخرج الشريعة كان ذلك اشهر من شرف الحسب المذكور وابنه من البيت المقدم ولانه يحتاج من الاعلام والآيات الى الظاهر المعقول والواضح الذى لا يخيل ان يشتهر مثله فى الآفاق فلا يحتاج حاله معه الى مال ولا قدره الى حسب ولان النبي ليس برسول ولا مبتدىء ملة ولا منشىء شريعة وانما هو للتأكيد والبشارة كبشارة النبي بالرسول الكائن على غابر الايام وطول الدهر وتوكيد المبشر يحتاج من الاعلام الى دون ما يحتاج اليه المبتدىء لاصل الملة الناقل للناس عن الجهل الراسخ فلذلك اكتفى النبي بشهرة اعلام الرسول وشرائعه من شهرة بيته وشرف حسبه لانه لا ذكر الا والنبي خامل عند ذكر الرسول ولا شرف الا وهو وضيع عند شرفه هنا ينقطع ما كتب الجاحظ . (10)

ولكننا اذا قدمنا على اضافة ما سقط من نص هذه الرسالة قلنا ان وظيفة الامام الذى مرتبته ادنى مرتبة ليست بشرع شريعة ولا بتوكيد شريعة أو بشارة برسول كائن فى المستقبل بل وظيفته المحافظة على الشريعة المنزلة وتلقين الناس مناهج العمل بها كى تصلح احوالهم فى الدنيا وفى الآخرة . ومن أجل تحقيق ذلك الغرض (10) الجاحظ - رسائل - تحقيق السندوبى - القاهرة 1933 - ص 247 وما بعدها .

يحتاج الامام الى نسب شريف كما شرحه صاحب رسالة الحميس لانه ليس برسول مستغن عن الحسب وليس بنبي يكتفى باعلام الرسول . اما منزلة امام الهدى فمثبتة بكونه من لحمه أهل بيت الرسول .

هذا هو الاساس النظرى لخلافة المأمون أو لامامة الهدى . فلنبحث الآن عن تأثير النظرية على تصرفات الخليفة السياسية . قلنا ان المأمون لم يدع الخلافة الا بعد اشتعال نيران الحرب الاهلية مع أخيه الامين . فمن البديهي ان همته الاولى كانت اعادة وحدة المسلمين . فنرى المأمون يسعى فى ذلك الغرض بحسب معتقده التى شرحناها آنفا . ان الامين وخلفه من بعده ابراهيم بن المهدي كانا يعتمدان على قوة أهل السنة فى بغداد الذين كانوا يعارضون أهل الاعتزال الذين التفوا حول المأمون . وكانت الفرقة المتطرفة من أهل السنة من سماهم الجاحظ فى رسالة له مشهورة «النابتة» . وكان من عادات النابتة ان يمدحوا معاوية حقدا منهم على دولة بنى العباس . فصاروا الآن أعوانا للامين وابراهيم على المأمون واصحابه .

فلما غلب المأمون على اعدائه عفا عنهم وتجاوز عن عذابهم لانه كان يرغب عن القهر . انما كان قصده تربية الناس حتى يدركوا صحة مقالاته الدينية واعماله السياسية . وكانت همته ادحاض حجج المخاصمين بحجج احسن منها لا بالدرة وبالسيف . لذلك السبب اعلن رسميا بعض العقائد التى قد ناقش فيها أهل الاعتزال ثم وافقوا عليها لانها فى ظنهم لا تتعارض مع المعقول والمنطق . وكان المأمون موقنا بان كل الناس سيقبلون تلك العقائد فتعود الوحدة ويزول النزاع ويكون السلام قائما الى الابد . اعلن المأمون ان ذكر معاوية بالخير ممنوع وان على بن ابي طالب خير الناس اجمعين وان القرآن مخلوق . ما معنى تلك العقائد الثلاث ؟ تقصد تلك العقائد الى تذليل النابتة لانها كانت تمدح معاوية وتشتم على بن ابي طالب وتقول بان القرآن كلام الله وان كلامه غير مخلوق يعود الى الله يوم القيامة مثلما خرج من عنده . روى يحيى ابن اكثم فى كتاب بغداد لابن طيفور ان المأمون أمر بجمع الفقهاء وأهل العلم عند دخوله بغداد . فلما حضروا مجلسه قال لهم لماذا لا تفضلون على بن ابي طالب على سائر السلف ومناقبه مشهورة جدا تدل بصراحة على عظيم فضله ؟ وما قصدنا من

تفضيل على بن ابي طالب تذليل غيره من الصحابة كما زعمه تلك الطوائف التي خالفتني في عقيدتي هذه التي هي مبنية على حجج معقولة .

ثم شرح الخليفة مبادئ مقالاته في علي حتى يدرك من حضر من أهل العلم صحة تلك المقالات ثم يقبلوها طوعا ويجمعوا على ما هو أَرْضَى واصلح للدين (!) وفي العقد الفريد حديث طويل في احتجاج المأمون على الفقهاء في فضل علي . فنرى المأمون يشبث ضرورة تفضيل علي على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجمعين، وهو يشير الى ان في زعمه لعل كرجل واحد مثل مناقب الصحابة باجمعهم . قال الراوى فأقبل علينا المأمون وقال ما تقولون ؟ فقلنا كلنا نقول بقول أمير المؤمنين فقال . . . اللهم قد نصحت لهم القول اللهم اني قد اخرجت الامر من عنقي اللهم اني ادينك بالتقرب اليك بحب علي وولايته . (12)

من هنا وما روى الجاحظ في نفس الموضوع نعلم ان المأمون كان يدين بقول الزيدية في علي بن ابي طالب وكان نفس القول من معتقدات المثقفين الذين حاباهم البرامكة ثم اجتمعوا حول المأمون في خراسان بعد سقوط البرامكة وكانوا كلهم يدينون بهذا القول لانه في زعمهم اصح قول على الاطلاق واقربه الى العقل والفهم . وكان المأمون يرجو ان يقنع الطوائف به .

ومن أقوال الزيدية أيضا ان الامامة انما تجوز في الشخص الافضل من قريش وان كانت جائزة في الشخص المفضول في ظروف معينة وان الافضل اذا صار اماما يتواضع له كل المخالفين فتصير الامة واحدة مثلما كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . تبني المأمون هذه العقيدة أيضا فعين عليا حفيد جعفر الصادق وليا للعهد من بعده وسماه الرضا تعريضا منه لتلك العقيدة الزيدية ولقول الهاشمية القديم بان الرضا من آل محمد سيصالح بين الاعداء وسيعامل المؤمنين بالعدل وسيرفع سلطان الظلم عنهم . فنرى المأمون الخليفة العباسي يرجع وحدة الامة على اسرته العباسيين وهو يحقق ما طلبت الهاشمية من امامة الرضا من آل محمد .

(11) ابن طيفور - كتاب بغداد - تحقيق كلر - ليزيغ 1908 - ص 75 .

(12) ابن عبد ربه - العقد الفريد - تحقيق أحمد أمين - القاهرة 1940 - 101/5 .

استعمل المأمون ما ادعاه المهدي من حق الخليفة العباسي في تعيين ولي العهد .
وانما استعمله لغرض غير الغرض الذي كان جده يقصد اليه .

فلنورد الآن بعض فصول العقد الذي عهد فيه المأمون بولاية العهد الى علي الرضا .
يقول المأمون ان علي الخليفة ان يختار من هو أهل لقمع المخالفين فكانت خيرة الخليفة بعد استخارته لله من البيتين العباسي والعلوي علي بن موسى بن جعفر لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وقد استبان له ما لم تزل الاخبار عنه متواطئة واللسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعة ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعا وناشئا وحدئا ومكتهلا فعقد له بالعقد والحلابة ايثارا لله والدين ونظرا للمسلمين وطلبا للسلامة وثبات الحجة والنجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين (13) ، ثم بعد ذلك رحل علي الرضا من الحجاز الى خراسان ليصاحب المأمون الخليفة في سفره وحضره . فتناقشا يوما من الايام في السلطان على المسلمين . وقال علي الرضا : ان العلويين يدعون الامر بسبب قرابتهم من رسول الله . فرد عليه الخليفة : انه ان لم يكن هاهنا شيء الا القرابة ففي خلف رسول الله من هو اقرب اليه ومن هو في القرابة مثله . (14) أشار المأمون بتلك الكلمات الى ان الامامة لا تجب الا لافضل اهل البيت . فيؤكد هذا الحديث ما شرحنا من آراء المأمون في الخلافة والامامة .

وبذلك اتممنا شرح مقالات المأمون وخلصتها ان امام الهدى يجب ان يكون من لحمه رسول الله صلى الله عليه وسلم كي يمكنه أداء وظيفته العظيمة الشأن وهي تربية الناس على التمسك بالشريعة حتى تصلح احوالهم في الدنيا والآخرة وان كل ذلك لا يتم الا على يد الافضل من أهل البيت جميعا . يظهر في افكار المأمون الدينية والسياسية المفهوم الاعلى للسيادة الاسلامية في القرون الوسطى وهو ان المأمون ربط بين السيادة والتربية واعتبر نفسه مسؤولا عن نجاح التربية التي لا تقصد الى القهر والاضطهاد بل الى تمكين المؤمنين من استخدام العقل الذي هو افضل ما انعم الله تعالى به عليهم . وهذا هو الذي يدلنا على كبر المأمون وعظمته لا أعماله السياسية التي فشل في معظمها الامر الذي يتفق عليه أصحاب التواريخ .

(13) القلقشندي - صبح الاعشى - القاهرة 1313 - 365/9 .

(14) ابن قتيبة - عيون الاخبار - القاهرة 1930 - 140/2 .

فهرس العدد

● دراسات وابعاث :

- 2 د. يحيى بوعزيز جهود الامير عبد القادر وخلفائه فى تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية .
- 43 المهدي البوعبدلى الطاهر الجزائرى .
- 49 د. سلفادور غومث الفلسفة الاسلامية الاسبانية .
- 82 تلمان ناكل الخليفة العباسى المأمون ، ودوره فى تطور فكرة السيادة الاسلامية .

● من معاضرات الملتقى 11 للفكر الاسلامى :

- 96 د. بارفين شوكت على المرأة بعد عام المرأة .
- 104 د. محمد رشيدى بطون الارض نعمة وليست نقمة .

● من اصدااء الملتقى 11 للفكر الاسلامى :

- 116 د. خير الله عصار ملاحظات حول الملتقى 11 للفكر الاسلامى

● رسائل جامعية :

- 123 عيسى موسى محمد ابن عبد ربه :حياته ، وشعره .

● قصة :

- 138 محمد نسيب عباس والبحر .